سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 08، العدد 02 – 20 ديسمبر 2018

Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V :08, N° :02 – 20 December 2018

الخلفية الفكرية للرؤية النقدية الاستشراقية للتراث العربي الإسلامي

The intellectual background of the orientalist critical vision of the Arab-Islamic heritage

حمادي النوي*

جامعة بشار/ الجزائر (noui.hammadi@yahoo.fr)

تاريخ الاستلام : 2018/07/29 ؛ تاريخ القبول: 2018/11/18 ؛ تاريخ النشر : 20 /12/ 2018

الملخص

لقد كان للدراسات الاستشراقية الأثر الكبير في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام وتناول المخطوطات الإسلامية بالتحليل والنقد وتشكيل مواقف الغرب تجاه الإسلام على مدى قرون عديدة، ذلك أن الحركة الاستشراقية كانت ولازالت تمثل خلفية فكرية في قراءة التراث العربي الإسلامي لاستجلاء وانتقاء أهم المعارف والمناهج العلمية والفلسفية التي تخدم الحضارة الأوروبية وبلورة فكرة تمثّل أساسا ومنطلقا قويا لا يمكن التخلي عنه. وهكذا نجد أن الدراسات الاستشراقية تتطلب منا وقفة تأملية جادة وواعية ودراسة أبعادها وتأثيراتها تجاه التراث الإسلامي، لذا حاولنا التركيز في بحثنا هذا معالجة إشكالية الموقف الاستشراقي تجاه تراثنا العربي الإسلامي وعقائده وفلسفته وإبراز خلفية هذا التحليل وكل ما يتعلق بأهمية هذه المخطوطات الفلسفية التي تشكل الدعامة الفكرية والتاريخية والكشف عن الجوانب الهامة المكونة لها وتحقيق الأنا العربي الإسلامي والتعايش مع الآخر.

الكلمات المفتاحية:التراث العربي الاسلامي، الرؤية الاستشراقية، الاستشراق

Abstract

The orientalist studies have had a great impact on the formulation of European perceptions of Islam and the handling of Islamic manuscripts in analysis and criticism and the formation of the West's attitudes toward Islam over many centuries. The orientalist movement was and remains an intellectual background in reading the Arab-Islamic heritage to explore and select the most important scientific and philosophical knowledge Which serve European civilization and the crystallization of an idea that represents a foundation and a strong starting point that can not be abandoned. Therefore, we seek to focus in our research on addressing the problem of the Orientalist attitude towards our Arab Islamic heritage, its beliefs and philosophy, and highlighting the background of this analysis and all that relates to the importance of these philosophical manuscripts, which constitute the ideological and historical pillar. And to uncover the important aspects that make up it and achieve the Arab-Islamic ego and coexistence with the other.

Keywords : The Arab Islamic heritage, the orientalist vision, orientalism

* **الباحث المُرسل:**

مقدمة:

لقد كان اهتمام المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي جلّيّا وواضحا من حيث الدراسة والترجمة للمخطوطات التي تحمل في طياتها آداب فكرنا وعلوم ثقافتنا وحضارتنا العربية الإسلامية التي كانت غنية وثرية بعلومها ومعارفها المتنوعة الدينية والدنيوية على الثقافات المجاورة. فلم يكن حظ الفلسفة من التأليف والعناية شبيها بغيرها من المعارف والعلوم في تراثنا المدّون الذي تُرّد فيه الريادة إلى علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله، فقد عانت الفلسفة الإسلامية كثيرا من القراءات المتعسفة والأحكام المسبقة التي صدرت من الدارسين الغربيين وخاصة المستشرقين منهم، الذين أثاروا جملة من الشبهات تتعلق بالتسمية أو أصالتها تجاه الفلسفات الأخرى وخصوصا الفلسفة اليونانية، وتتجلى أهمية المخطوطات وتظهر مكانتها من كونها جزءا من التراث العربي الإسلامي الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية، ومحاولة دراستها تدفع بالباحث إلى الكشف عن أسباب النهضة والوقوف عن عوامل التطور والتقدم والإبداع عند العرب المسلمين، لذا أصبحت المخطوطات محل اهتمام المستشرقين نظرا لأهميتها وقيمتها العلمية كونها جزءا من التراث العربي الإسلامي الذي شكّل بنية الذهنية العربية المتميزة بمعارف ومناهج موضوعية تثري ثقافتنا وحضارتنا العربية الإسلامية.

وليس هناك شك في الانتشار الواسع والسريع للإسلام في كل من المشرق والمغرب العربي الإسلامي، الذي لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت المسيحي إلى هذا الدين، ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته وتحقيق جزء كبير من كنوز هذه المخطوطات والعقائد والفلسفة المخبوءة والتي تحتاج إلى من يخرجها إلى الوجود قصد استجلاء الحاضر واستشراف المستقبل، شيء جدّ مهم للإنسان عموما والباحث العلمي بشكل خاص أن يقرأ تراثه وعقائده بعين الآخر ولا يبقى منعزلا في ما يفكر ويعتقد، لأنه سوف يفقد التجديد والحركية والإبداع الفكري.

ولما كان الاستشراق ليس على درجة من التجانس الذي يسمح لنا بإطلاق أحكام قيمية في كيفية التعامل مع الذات والآخر، بحكم أن التراث الاستشراقي تراث ضخم ويقتضي تكامل الجهود وتوفر المعارف والأفكار البنّاءة لتشكيل بنيتنا الفكرية لكي لا يتحول الاستشراق إلى أداة استلاب واغتراب وطمس لتراثنا وهويتنا الحضارية، فينبغي اليقظة والحذر في التعاطي مع المواقف الاستشراقية.

فإذا كان العقل العربي يعيش أزمة الأسس والمرجعيات نتيجة اعتماده المرجعيات الغربية في التعامل مع مكوناته الحضارية ونقصد دور المستشرقين تجاه تراثنا فإنه جدير أن نبرز هذه الخلفية الفكرية النقدية تجاه التراث العربي الإسلامي ومحاولة الوقوف على منطلقاتها ومرجعياتها الفكرية والإيديولوجية، أما إشكالية البحث فتتعلق بالخلفية الفكرية الفلسفية النقدية التي تبنّاها المستشرقون تجاه دراسة التراث العربي الإسلامي، كيف تعامل المستشرقون مع التراث العربي الإسلامي؟ وهل كان للاستشراق دور سلبي في التعامل مع تراثنا؟ هل بمنطق التوظيف والتواصل أم بمنطق النقد والتجاوز؟ وهل كان للمستشرقين استعداد لتطوير أساليبهم الذاتية المنغلقة في دراسة التراث الإسلامي والالتزام بالموضوعية والنزاهة العلمية؟.

أ/الاستشراق والتنظير للتراث العربي الإسلامي

إن موضوع الاستشراق والمستشرقين قد اكتسب أهمية كبيرة في الدراسات العربية الإسلامية وخصوصا عند المشتغلين بالفكر العربي الإسلامي، فالحديث عن الاستشراق قد يدفعنا إلى الحديث عن مدرسة أوروبية غربية تقوم على دراسة ثقافة وحضارة عربية إسلامية لها خصوصيتها في الخطاب الفلسفي الإسلامي أي أننا نتكلم عن الغرب الأوروبي ودراساته للشرق والغرب ، ويمكن لنا أن نقف عند حقيقة الاستشراق وأبحاث المستشرقين حول الدراسات العربية والتراث العربي الإسلامي. "لقد قست عندئذ حجم ذلك التفاوت الفاضح بين الباحثين المسلمين والمستشرقين والذي يجعل الاستشراق مستمرا حتى الآن في الافتخار بأنه هو وحده الذي يؤدي إلى تقدم الدراسات في مجال الثقافة الإسلامية والفكر العربي، كما كان عليه الحال أيام غولد زيهر وجوزيف شاخت"1.

أما إذا أردنا تحديد مفهوم الاستشراق كمصطلح فلسفي الذي يمكن اعتباره كأسلوب وطريقة اتبعها المستشرقون في التفكير يرتكز على التمييز المعرفي والايديولوجي بين الشرق والغرب الإسلامي، أو هو ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من طرف مفكري الغرب الأوروبي.

"ومصطلح الاستشراق (Orientalisme) تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتأريخهم، ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، وقد

1 – مُحَمَّد أركون، من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط1، 1991، ص30

أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما"2.

فقد تأسس الفكر الاستشراقي بوصفه مؤسسة فكرية بعد أن فشلت الحروب الصليبية التي قادها الأوروبيون ضد العالم الإسلامي للسيطرة والهيمنة على مقوماته المادية والمعنوية، فلجئوا إلى ابتكار الوسائل المعرفية والمنهجية وأسلوب دراسة أحول المسلمين، واحتواء الإسلام بوصفه دينا وعقيدة واختراق الألم الإسلامي، فكان المشروع الاستشراقي نابعا من علاقة بين الكنيسة والسلطة في الغرب، أي السلطة الدينية والسلطة المدنية، فتأسست المعاهد ومراكز الدراسات والبحث، لتخدم غرضا واحدا هو ضمان استمرار سيطرة الغرب على الشرق.

ويمكن القول بأن الدراسات الاستشراقية ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي بينما نجد المستشرق الألماني (رودي بارت) (Rudi Part) يعتقد أن البدايات الأولى للدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا تعود إلى القرن 12م الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية. "وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ... وترجموا القرآن وبعض الكتب العربية العلمية والأدبية حتى جاء القرن الثامن عشر وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية، ويغيرون على المخطوطات العربية والإسلامية، فيشترونها من أصحابها الجهلة، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل إلى مكتبات أوروبا، وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلدا، ومازال هذا العدد يتزايد حتى اليوم"3. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873م وتوالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته وما تزال تعقد حتى هذه الأيام.

لذلك يتطرف بعض المستشرقين أحيانا عندما يميلون إلى تجريد الحضارة الإسلامية من الإبداع الفكري والنظر الفلسفي التأملي ويعتبرونها صحراء قاحلة أي خالية من كل أنماط التفكير الفلسفي

2 – الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الرياض، ط2 ،1989 ، ص 33.

3 – مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون (مالهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي،(د.ط ، س)، ص 17 – 18- 19 .

النقدي المنظم، لأن صدر الإسلام تميز بسيطرة العلم النقلي السماعي أي العلوم الشرعية كعلوم القرآن الكريم والحديث والفقه وأصوله، في حين لم تكن العلوم العقلية كالفلسفة وعلم المنطق وعلم الكلام قد عرفت التطور والازدهار الذي شهدته العلوم الدينية المستمدة من القرآن والسنة النبوية، لذا كان موقف المستشرقين سلبيا عدائيا تجاه هذه المسألة، "يميل نفر من المستشرقين إلى تجريد العقلية الإسلامية من كل لون من ألوان الإبداع الفكري، وينكرون على فلاسفة الإسلام الجدة والأصالة في تفكيرهم ويعتبرونهم مجرد نقلة للتراث اليوناني الفلسفي، وتقوم هذه الدعوى على أساس عنصري يقسم الشعوب إلى ساميين وآريين، فالعرب وهم الجنس السامي لا قدرة لهم على التفكير الفلسفي وتناول الأمور المجردة، أما الشعوب الآرية ومنهم اليونانيون القدماء فهم وحدهم أصحاب المقدرة على ذلك"4.

مما سبق ذكره يتضح لنا أن أنصار الموقف الاستشراقي الغربي يعتقدون أن التراث الفلسفي الإسلامي لم يبدأ إلا مواكبا لحركة الترجمة، ويثبتون التبعية المرجعية والنقل عن الفلسفة اليونانية، ولهذا الموقف خطورته على أصالة الفلسفة العربية الإسلامية أما إذا كانت حقيقة الفلسفة اليونانية تمثّل الصورة الكاملة للفكر الإنساني العالمي، أم تبقى بمثابة الإنتاج العقلي الأصيل الذي ينتمي إلى البيئة العربية الإسلامية التي أبدعته وابتكرته عبر قرون.

"لقد أحدثت الترجمات التي أتينا على ذكر بعضها، في العالم العربي، انقلابا فكريا وثقافيا ولغوّيا منقطع النظير في تاريخ الحضارة الإنسانية يفوق الانقلاب الذي أحدثته "النهضة" في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي"5.

يتبين لنا أن حركة الترجمة كان لها التأثير المباشر في التعرف على كنوز المعرفة المخبوءة في الحضارة الإسلامية، التي شجعت البعثات الاستشراقية من نقل هذه المعارف المختلفة ومحاولة استيعابها وفهمها وفق منهج ودراسة قائمة على أحكام مسبقة، مع العلم أن العرب كان لهم الدور الإيجابي في ترجمة التراث اليوناني والفلسفات السابقة مما ساعد على انتقالها إلى الغرب الأوروبي، لذلك يقول المستشرق الهولندي ديبور:" ونستطيع أن نقرر بالإجمال أن السريان والعرب قد بدأوا الفلسفة حيث انتهى منها آخر فلاسفة اليونان ، أعني أنهم بدأوا على التعين حينما أخذ علماء

4 – مُحَمَّد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2000، ص 9.

5 – حنّا الفاخوري خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، الجزء الثاني، الفلسفة العربية في الشرق والغرب، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993، ص 32.

المذهب الأفلاطوني الجديد يشرحون فلسفة أرسطو التي كانت كتب أفلاطون تدرس وتشرح إلى جانبها"6. لقد نال التراث العربي المخطوط نصيبه من هجمة المستشرقين عليه، فقد ذكر (محمود المقداد) الهدف من جمعهم المخطوطات قائلا: "وهكذا حاول الفرنسيون أن يتعرفوا أخلاق العرب، والشرقيين، وعاداتهم، وتقاليدهم، وما لهم من معارف وثقافات... ولهذا اتجه الغربيون عامة، والفرنسيون خاصة إلى جمع أعداد من المخطوطات. "7.

ويؤكد المستشرق (كراتسكوفسكي) الهدف من البعثات قائلا: "يتاح للمستعرب القيام باكتشافات كثيرة، ولعله يلقى منها على طريقه أكثر مما يلقى الباحثون في المجالات العلمية الأخرى التي هي أعمق تنقيبا وتستدعي عددا أكبر من البحاثة ولا داعي للتفكير في أن هذه الاكتشافات لا ترتبط إلا بالمخطوطات"8.

ولكن ما يؤاخذ على الاستشراق من وجهة النظر الإسلامية هو تمسك المستشرقين بالأساليب الاستشراقية البالية في فهم الإسلام وتناوله والروح العدائية التي تحملها دراساتهم حول الإسلام، تلك الروح التي لا تزال مسيطرة على غالبية علماء الإسلاميات من المستشرقين، لذا قد عبّر أركون بقوله : "المعرفة تعني أن نستبق الأمور أو نستكشفها أولا قبل أن نستطيع السيطرة عليها"9 ، إذ الفكر الاستشراقي أصبح لاغيا ولا جدوى منه أثناء استخدامه في التعريف بهذه المستعمرات، لذا يرى أركون أن المدرسة الفرنسية للاستشراق كانت مهتمة باكتشاف الماضي العربي الإسلامي أي التركيز على ماضي الشعوب. " تقول القراءة الاستشراقية أنها تريد "أن تفهم" ولا شيء غير ذلك. ولكن ماذا تريد أن تفهم؟ تريد أن تفهم مدى "فهم" العرب لتراث من قبلهم. لماذا لأن العرب الذين كانوا واسطة بين الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة(الأوروبية) إنما تتحدد قيمتهم بهذا الدور نفسه، الشيء الذي يعني أن "المستقبل" في الماضي العربي كان في استيعاب ماض غير الماضي العربي (ثقافة اليونان بكيفية خاصة)، وبالمقايسة يصبح "المستقبل" في الآتي العربي مشروطا باستيعاب "الحاضر – الماضي" الأوروبي"10.

6 – دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، تر محمد عبد الهادي أبو ريدة، ملتزمة الطبع والنشر، القاهرة، ط5، ص 23.

7 – تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، عالم المعرفة، الكويت، 1992 ، ص ص 56– 57.

8 – طارق سرى، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، مكتبة النافذة ، مصر، 2006، ص .26

09 – محمد أركون، تحرير الوعي الإسلامي نحو الخروج من السيّاجات الدوغمائية المغلقة، مصدر سابق، ص 32 .

10– محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط6، 1993،ص 14.

وسنحاول التعرف على بعض النماذج من دراساتهم الإسلامية، وهذه النزعة العنصرية التي تميز بين الشعوب والنظر إلى الجنس الآري أنه من الجنس السامي وقد بان ذلك عند بعض المستشرقين كالفرنسي رينان مثلا التي تجعل العربي المسلم يقف من الاستشراق موقف الحذر المتشكك بل موقف الرافض للاستشراق.

ومنه نجد أن محاولة الاطلاع على الاستشراق ومناهج المستشرقين وأعمالهم لهو ضرورة ملحة لكل باحث متخصص في الساحة الثقافية أو المحيط الفكري الذي يتعامل معه، مما يساعد على فهم وإدراك ما يجري في الفكر العربي الإسلامي، وبالخلفية الفكرية التي يحملها الآخر، لأن أعمال المستشرقين جاءت من بيئات وثقافات مختلفة ومنه يظهر التباين جليا في هذه الأعمال كونهم ساهموا في خدمة المخطوط والتراث العربي الإسلامي من جمع وتحقيق وترجمة وتصنيف ولذلك كان موضوعا رئيسيا في الدراسات الاستشراقية مع الإشارة إلى بعض المحاولات الجادة التي ظهرت في أوروبا للتعرف على الإسلام.

وفي المقابل تكون حقيقة الاستشراق والرؤية التاريخية الفلسفية النقدية المتعصبة أحيانا التي تحمل مشروعا استعماريا غربيا تجاه فهم الإسلام باستخدام مناهج وأدوات معرفية ضيقة ومنغلقة على ذاتها، "وليس هناك شك في أن الانتشار السريع للإسلام في المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت المسيحي إلى هذا الدين"11، ومن هنا بدأ الاهتمام بالإسلام ودراسته. "اهتم المستشرقون بترتيب سور القرآن حسب النزول، منذ منتصف القرن التاسع عشر بكيفية خاصة، وكان هدفهم في هذا المجال بناء تصور "موضوعي" لتطور الوحي المحمدي والتعرف على الجانب الروحي من السيرة النبوية. وقد عدلوا عن اعتماد لوائح "ترتيب النزول" التي وضعها الرواة المسلمون، لما يكتنفها من اختلاف يطال جميع السور تقريبا كما رأينا. وكان المستشرق الألماني (نولدكه) (Noldekee) (1836م– 1930م) أشهر من اشتغل في هذا الموضوع. "12.

"ومن بين العلماء المسيحيين الذين أظهروا في وقت مبكر اهتماما بدراسة الإسلام لا من أجل اعتناقه وإنما من أجل حماية إخوانهم في الدين منه – كان العالم المسيحي يوحنا الدمشقي (676

11 – محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.س، ص ص18– 19.

12 – مُحَّد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، أكتوبر 2006، ص ص 240– 241.

م- 749م) . ومن بين مصنفاته في هذا الصدد لإخوانه كتاب (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدول المسلمين) "13.

وإذا ما مااستقرأنا هذه الدراسات الاستشراقية وظهورها فليس هناك اتفاق بين المؤرخين على بداية معينة للاستشراق، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يذهب إلى أن البدايات الأولى للاستشراق تعود إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، "بينما يرى (رودى بارت) أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا تعود إلى القرن الثاني عشر الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، كما أظهر أيضا في القرن نفسه أول قاموس لاتيني عربي"14.

فما يهمنا كدارسين ومحللين لهذه الرؤية الفكرية الاستشراقية النقدية للتراث العربي الإسلامي، هو تاريخ مفهوم "مستشرق" أو"إستشراق" للوجود في الفكر الأوروبي الحديث، وإنما المهم هو متى بدأت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ومتى بدأ الاشتغال بالإسلام والحضارة الإسلامية سواء من جهة القبول أو الرفض. وهذه العملية قد نشأت عند السابقين في القرون السالفة كما ظهر لنا ذلك جليا، " أما المصطلح ذاته فلا يعنى شيئا أكثر من إقرار أمر واقع، وإطلاق وصف على الدراسات التي كانت قائمة بالفعل قبل ذلك بقرون عديدة، بصرف النظر عن مدى علمية هذه الدراسات أو موضوعيتها، فهذه مسألة أخرى قابلة للنقاش حتى فيما يتعلق بالدراسات الاستشراقية في العصر الحاضر"15.

وهذا يفضي بنا إلى القول إلى غياب الموضوعية والنزاهة العلمية في التعاطي مع الآخر والانغلاق تجاه موقف متشبع بالذاتية وله منطلقاته الفكرية والإيديولوجية الأوروبية النابعة من الحضارة الغربية. "وعلى أية حال فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والمسيحي في الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته. ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم المسيحي الغربي في القرون الوسطى والشرق الإسلامي على الصعيدين الديني والأيديولوجي"16.

13 – محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق، ص 19.

14 – رودى بارت،الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، 1967 ، ص9.

15 – محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق، ص ص20-21.

16 – المرجع نفسه، ص 21.

وفي ذلك الوقت المبكر المعادي للإسلام ذهب بعض اللاهوتيين الأوروبيين ينشرون الافتراءات والأكاذيب الباطلة حول الدين الإسلامي ونبيه صلى الله عليه وسلم، التي تشكك في القرآن والسنّة النبوية، وزعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس إلاّ صنما أو قبيلة أو شيطانا. مما جعل المستشرق اللاهوتي (ساذرن) يحكم على هذه الفترة أنها تميزت بالجهل والظلامية ومثلت عصر الجهالة وذلك من خلال كتابه تحت عنوان " نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى" وإن كانت الحقيقة خلاف ذلك، وهو موقف ما يكون أبعد عن روح العلم والموضوعية. وفي ذلك يقول ساذرن: على أن الشيء الوحيد الذي يجب أن لا نتوقع وجوده في تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية، أو البحث الإنساني الذي تميز به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة سنة الأخيرة"17.

وعلى النقيض من ذلك الموقف المتطرف والمعادي لحضارة الإسلام، ظهرت جهود تقر بحقيقة التراث العربي الإسلامي وتقر بأصالته وخصوبته الفلسفية وعظمة علومه المختلفة مثل الفلسفة عند الفارابي وابن رشد والطب عند ابن سينا وابن النفيس والعلوم الطبيعية عند جابر بن حيان والبيروني والحسن بن الهيثم وغيرهم كثير.

ومع مطلع عام 1130 م كان علماء المسيحية في أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم المختلفة. وكان لرئيس أساقفة طليطلة وغيره الفضل في ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية، بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكي. وهذه الحركة التي قامت في أوروبا لترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية تشبه تلك الحركة التي قامت في العالم الإسلامي في عهد المأمون ومن سبقه لترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية.

يقول (رودى بارت): حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا لتلك

17- المرجع نفسه ص ص 22- 23.

المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلفقون كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام"18.

ويمكن القول بصفة عامة بأنه قد كان هناك في هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام. أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاها لا هوتيا متطرفا في جدله العقيم، ناظرا إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. أما الاتجاه الثاني فقد كان نسبيا بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعية والعلمية، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة. ولكن الاتجاه الخرافي ظل حيا حتى القرن السابع عشر وما بعده. ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيا في العصر الحاضر في كتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيه" 19.

ب/الاستشراق وتحقيق الأهداف والمصالح التنصيرية:

لقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية في نهاية القرون الوسطى مع البعثات السياسية والدبلوماسية مع الخلافة العثمانية التي عرفت توسعا طال أطرافها حتى ألهبت أطماع الغرب الأوروبي عندما أصبحت تعرف بالرجل المريض الذي طال مرضه بعد أن اتسعت رقعتها الجغرافية في الشرق والغرب الإسلامي، لكن مع بداية عصر النهضة الأوروبية وظهور النزعة الإنسانية التي كان لها الأثر في دراسات أكثر موضوعية من ذي قبل وهذه النزعة تقر بأهمية الإنسان، وتدافع عن حريته وتطوره من كافة الجوانب، وقد رفع لواءها جيوردانو برونو" كتب يقول: في المستطاع أن نثبت أنه إذا وجدت في الحس مشاركة من العقل، فإن الحس سيكون في هذه الحال هو العقل نفسه"20.

وفي القرن السابع عشر بدأ المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلامية، وأنشئت كراسي باللغة العربية في أماكن مختلفة. والذي من خلاله تم إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج عام 1636م إحدى القلاع المعرفية الأكاديمية العالمية والذي نص صراحة على تحقيق هدفين أحدهما

18 – رودى بارت، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الالمانية، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، 1967 ، ص 11.

19– محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق، ص 26.

20 – اميل برهيه، تاريخ الفلسفة، العصر الوسيط والنهضة، الجزء الثالث، تر جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، يناير 1988، ص 312.

متعلق بالجانب التجاري والثاني له علاقة بالتنصير. فقد جاء خطاب للمراجع الأكاديمية المسؤولة في جامعة كمبردج بتاريخ 9 ماي (أيار) 1636م إلى مؤسس هذا الكرسي ما يأتي:

" ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلا من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها، ولكننا لا نهدف أيضا إلى تقديم خدمة نافعة على الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات"21.

لكن نلاحظ أن موقفه من الإسلام كان شديدا وعنيفا خصوصا تجاه القرآن الكريم الذي وصفه بالإيجاب والكمال وقمة الإبداع في الفصاحة والبلاغة اللغوية، لكنه في مضمونه ومحتواه إن هو إلاّ تقليد للكتاب المقدس لكن الحقيقة تخالف ما يعتقده هذا المستشرق المتعصب تجاه الحضارة الغربية الأوروبية، دون أن ننسى تطرفه وعنصريته في مهاجمة النبي العربي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه التي كانت نورا وهداية للبشرية جمعاء.

"أما موقفه من الإسلام فإنه على الرغم من أنه كان يرى أن القرآن يعد قمة من حيث اللغة إلا أنه لم يكن يرى فيه من حيث المضمون شيئا أكثر من تقليد مضحك للكتاب المقدس. وكان رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه متفقا تماما مع ذلك النفور الذي كان سائدا حينذاك في الغرب إزاء النبي العربي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه"22.

وبما أننا سنقتصر في هذا البحث على تحليل الرؤية والخلفية الفكرية النقدية الاستشراقية للفكر الفلسفي في الإسلام دون غيره من فروع الثقافة العربية الإسلامية وفنونها، لكن نجد المفكر مصطفى عبد الرازق حاول التجديد والإبداع في مجال الفلسفة العربية الإسلامية والذي يعدّ بحق مؤسس المدرسة الفلسفية التي أقامها على روح الإسلام، عندما استطاع إعادة منهجية تاريخ الفلسفة الإسلامية إلى أصولها التاريخية الذاتية دون الأخذ بأسطورة أن الفلسفة ما كان لها من دور سوى نقل التراث اليوناني إلى العرب، لذا كانت محاولته جادة وقوية في الدفاع عن أصالة الفلسفة العربية الإسلامية والرد على الشبهات والإدعاءات الباطلة وعمل على إبراز خطأ الآراء والأحكام الصادرة عن بعض الغربيين لما يلابسها من التسرع في الحكم على القيمة الذاتية لأصل التفكير الإسلامي، ويرى المفكر المغربي محمد عابد الجابري أن الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه تمهيد لتاريخ

21- محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق، ص31.

22 – المرجع نفسه، ص 32.

الفلسفة الإسلامية لم يحاول التطرق للاستشراق في الفلسفة كرؤية أو كمنهج وإنما ضلع في تفنيد آراء هؤلاء المستشرقين المشتغلين بحقل الفلسفة العربية الإسلامية "فإن اهتمامه بقي مركزا، بل محصورا في عرض وتفنيد الآراء إلي تطعن في قدرة العرب على التفلسف والتي تنكر بالتالي وجود أية أصالة في الفلسفة الإسلامية أو العربية"23. ويضيف أيضا "إن ما كان يهمه هو إثبات أصالة الفلسفة الإسلامية، لا بوصفها "فلسفة" بالمعنى اليوناني للكلمة وحسب، بل أيضا وبالدرجة الأولى بوصفها القدرة على ممارسة التفكير العقلي"24.

وإذا أردنا أن نقف على حقيقة هذه الدراسات الاستشراقية التي كتبها وروّج لها الفيلسوف والمؤرخ والمستشرق الفرنسي أرنست رينان(1823/ 1892م) والذي يمثّل النزعة العنصرية وصنّف البشر إلى ساميين وآريين، وتقرير تفوق الجنس الآري في مجال الفلسفة كما في مجالات أخرى، إذ يقول: "هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسمى درجاتها لم يثمر أدنى بحث فلسفي خاص، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباسا صرفا وتقليدا للفلسفة اليونانية، فكل ما في الأمر أنها مكتوبة بحروف عربية "25.

ولما كان الاستشراق موضوع اتهام ولا يخرج من سياجه التاريخي الأوروبي الذاتي، فيجب علينا التنويه والاعتراف ولو ضمنيا ببعض المحاولات الموضوعية في هذا السياق. لكن السؤال الذي يواجهنا اليوم هو كيف نتعامل وهذه التصورات والمواقف الاستشراقية النقدية تجاه ترثنا العربي الإسلامي، هل نساير المستشرقين في أطروحاتهم، أم نقف الموقف الفلسفي النقدي من هؤلاء ونصنع لأنفسنا موقعا يسمح لنا بفرض ذواتنا والتخلص من التبعية الفكرية المألوفة في المشهد الحضاري العربي الإسلامي اليوم أم أننا مازلنا لم نستوعب الدرس بعد ونكشف تلك الحلقة المفقودة في تاريخ الفكر الإنساني وبذل الجهد لإعادة بعثه وتخليصه من دائرة التحجر والتصدع إلى دائرة التماسك والانتظام أي انتقائه وتخليصه من الإرهاصات الاستشراقية، يقول الجابري:" "إن تراثنا يكفينا" قول صحيح في مجال وغير صحيح في مجالات أخرى. فإذا كان المقصود هو الميدان

23 – مُحَّد عابد الجابري، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الأول، ص 307.

24 – المرجع نفسه، ص 310.

25 – المرجع نفسه، ص 309.

الروحي الديني فتراثنا، عقيدة وشريعة يكفينا فعلا ، ولكن شريطة أن نجتهد فيه اجتهادا يجعل منه تراثا لنا نمتلكه ونستثمره دون تحزب للمذاهب والفرق التي عرفها تاريخنا"26 .

مع العلم أن رواد الدرس الفلسفي في الفكر العربي المعاصر على دراية ومعرفة بالباحثين الغربيين الذين طعنوا صراحة في الفكر العربي ولم يروا في في الفلسفة الإسلامية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية، وبين المستشرقين الذين خدموا التراث العربي بما نشروه من مخطوطات وما كتبوه من أبحاث ودراسات مختلفة، هذا يعني أن رواد الدرس الفلسفي في الفكر العربي الحديث لم تكن لديهم القدرة والوعي الكامل للكشف عن طبيعة الرؤية الاستشراقية ولا عن مكوناتها الإيديولوجية والمنهجية.

ج/الاستشراق والتأسيس للمرجعية الفكرية الغربية

إذا أردنا تحليل بعض المواقف الاستشراقية في العصر الحديث المتمثلة في بعض الأطروحات التي دافع عنها هؤلاء المستشرقين في كتاباتهم، والتي تحاول تتبع منابع واتجاهات التفكير الفلسفي عند المسلمين، ومنهم المستشرق الهولندي توفي عام 1942م، والذي حلّل التفاعل الثقافي الحاصل بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وأن أوروبا لا يمكن أن تنقذ فكرها الخاص إلا إذا التقت خارجها وحديثه عن الفلسفة يمتد حتى عصر ابن خلدون فالقرن الثامن الميلادي والرابع عشر الميلادي.

"يعتبر كتاب المستشرق الهولندي دي بور "تاريخ الفلسفة في الإسلام" أول كتاب يؤرخ للفلسفة الإسلامية عام 1901م، وقد أشار في مستهل مقدمة الكتاب حيث يقول: " هذه أول محاولة لبيان تاريخ الفلسفة الإسلامية في جملتها، بعد أن وضع الأستاذ (مونك) في ذلك مختصره الجيد. فيمكن أن يعد كتابي هذا بدءا جديدا لا إتماما لما سبقه من مؤلفات"27. ويضيف دي بور في المدخل الذي خصصه لـ "مصادر الفكر الفلسفي في الإسلام: " لم تكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات في الفلسفة وراء الأحاجي والأمثال الحكيمة. وكان هذا التفكير السامي يقوم على نظرات في شؤون الطبيعة متفرقة لا رابط بينها ويقوم بوجه خاص على النظر في حياة الإنسان ومصيره.

26 – حسن حنفي ومُحَّد عابد الجابري، حوار المشرق والمغرب، نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1990، ص 72.

27 – مُحَّد عابد الجابري، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق ص321.

وإذا أردنا تحليل أعمال وتجربة المستشرق الفرنسي هنري كوربان (1978/1903م) في موضوع إشكالية تاريخ ونشأة الفلسفة الإسلامية والمنهج الذي اعتمده في دراسة التراث الإسلامي، والذي حاول فيه الكشف عن تجربته الفكرية والفلسفية والتي أصبحت أحد جسور الواصل بين الغرب والشرق، "الواقع إن مشروع هنري كوربان لهو كذلك بالفعل، إنه نتاج تناقضات الفكر الفلسفي في الغرب وليس نتيجة الرغبة في خدمة جانب "مجهول" أو "مظلوم" في الفكر العربي الإسلامي" 28.

"فعلا كان ماسينيون من أبرز الأساتذة الذين أثروا في هنري كوربان الشاب ورسموا له خط سيره الثقافي، فهو الذي وجهه إلى دراسة ابن سينا والفلسفة الإشراقية في العشرينات من هذا القرن، اتجه هنري كوربان في دراسته ذلك الاتجاه فاكتشف شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي الحلبي الذي أغرم به وظل ملازما له طول حياته. وطوال الثلاثينات، ولم يكن هنري كوربان مجرد قارئ ولا مجرد مترجم بل لقد انخرط في الصراعات الفكرية التي عرفتها فرنسا آنذاك، فاتخذ موقفا معاديا من هيجل صاحب "ظاهريات العقل" و"فلسفة التاريخ" و"فلسفة الحق"...هيجل قمة العقلانية في أوروبا القرن التاسع عشر الذي امتد تأثيره إلى العقود الأولى من القرن العشرين29." ولا بد للمسلمين أنفسهم أن يعيدوا، من داخل التراث الإسلامي، "لكلمة إسلام" قوّتها الروحية والدينية على مستوى الخطاب القرآني، لكن باستخدام أدوات فكرية واستراتيجيات معرفية حديثة"30.

إن المنهج الذي استخدمه المستشرقون يعتبر من الوسائل المعرفية التي ساعدت على التعريف بالتاريخ الإسلامي إذ أنها تمس موضوعًا دقيقًا هو طبيعة التاريخ الإسلامي وجوهره، ومن ثم فقد أثرت على الطريقة التي كوّن المسلمون بها صورة لأنفسهم في سياق تاريخهم، وقد عبّر المفكر المغربي عابد الجابري عن ذلك أفضل تعبير "إن جميع ما كتب في هذا الموضوع هو إما تكرار لطريقة مفكرينا القدماء وإما استنساخ لطريقة المستشرقين وبالتالي تبني لا واع لأهدافهم وإشكالاتهم"31. وهذا التحول كان دافعا قويا جعل بعض المستشرقين يصدرون أحكاما قاسية تجاه الإسلام ويتهمون النبي صلى الله عليه وسلّم بالأمي والدّجال وغيرها من الاتهامات التي لا تليق

28 – المرجع نفسه، ص331.

29 – المرجع نفسه، ص ص332 – 333.

30 – مُحَّد أركون جوزيف مايلا، من منهاتن إلى بغداد ماوراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقي،بيروت، ص 28.

31 – مُحَّد عابد الجابري، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق، ص335.

بشخصه ورسالته العالمية للبشرية جمعاء، و من بين هذه الأحكام ما جاء في قول المستشرق الهولندي جولد تسيهر (1850م/1921م) مؤسس الدراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا اشتهر هو الآخر بمواقفه في الحديث النبوي الذي يقول: "إن الإسلام يكره التجديد وكلّ بدعة في نظر الجماعة الإسلامية هي موضع للشك أو الشبهة وظهورها مدعاة للأسى، إذ أنها تهدر وحدة الجماعة وتؤدي إلى انهيار الشريعة"32

وقد تولدّ عن ذلك موقفا سلبيا تجاه الإسلام الذي لا يساير التقدم العلمي والتكنولوجي وبعيد عن التطور والتجديد فهو رجعي، فالدراسات الاستشراقية تتطور بتطور الحضارة الغربية وما تبدعه من مناهج علمية وأدوات معرفية، ففي لحظة تاريخية كان الاستشراق يعبّر عن مظهر من مظاهر الاستعمار وسلب الآخر أي استغرابه وفق آليات غربية خالصة. وقد ظهر الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي في موسوعة المستشرقين مؤيدا ومدافعا عن هذا المستشرق الذي استلهمت كتاباته عن الإسلام وتراثه اهتمام بدوي لا من زاوية فلسفية فقط وربما من زاوية إثارة بعض الإشكالات الاستشراقية التي لفتت انتباه هذا الفيلسوف ويظهر في الكثير من أقواله.

"لذا يشيد به إشادة بالغة في موسوعة المستشرقين ويعلي من شأنه في كتابه التراث اليوناني فقد كان لديه نوع من التجربة الروحية الباطنة استطاع عن طريقها أن ينفذ في النصوص والوثائق كي يكشف من ورائها الحياة التي تعبر عنها النصوص ويتبين التيارات والدوافع الحقيقية"33.

و قد جاء على لسان المفكر عبد الحليم عطية معبرا عن تأثر بدوي بالمستشرق جولد تسيهر في موسوعته عنه يقول: "يشاء أن يهب الإسلام من الأوروبيين من يؤرخون له كسياسة فيجيدون التأريخ، ومن يبحثون فيه كدين وحياة روحية فيتعمقون هذا البحث ويبلغون الذروة فيه أو يكادون... وكان سيد الباحثين فيه من الناحية الدينية خاصة والروحية عامة اجنتس جولد تسيهر"34.

خاتمة: نحن لا ننكر المجهودات التي قام بها الكثير من المستشرقين الذين ساهموا في نشر وتحقيق عدد جد هائل من كتب التراث العربي الإسلامي والذين سلّطوا الضوء على الكثير جوانبه وفتح المجال لتصور جديد عن الإسلام والتراث. ولكن يجب أن نكون واعين وحذرين في الوقت نفسه بأن

32- عرفان عبد الحميد ، المستشرقون والإسلام، مطبعة الإرشاد بغداد، 1969 ، ص ص 9- 10.

33 – أحمد عبد الحليم عطية، موقف من المستشرقين" الذات في الآخر" دراسات استشراقية، العدد الثالث عشر، شتاء 2018م، ص 102.

34 – عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، 1984 ، ص 119.

اهتمامهم بهذا التراث سواء على مستوى التحقيق والنشر أو على مستوى الدراسة والبحث لم يكن بأية حال من الأحوال من أجلنا نحن العرب والمسلمين، بل كان دوما في تحقيق أهداف غربية خالصة. وهذا يفرض التعامل بحذر ويقظة واستخدام كل الآليات المعرفية والمنهجية الضرورية لتبيان الخلفية الفكرية للدراسات والأبحاث الاستشراقية. وإذا كان من واجبنا الرد عليهم في وقت من الأوقات، فلا يكون بصب اللعنات عليهم من الخارج بل بتحليل فكرهم من داخله والكشف عن دوافعه وأهدافه أي مواجهتهم بمنطق النقد والرفض لا التقليد والتسليم بهذه الأطروحات الفكرية. فإذا كنا قد استطعنا أن نفعل شيئا ما في الماضي ونقدم إسهامنا للحضارة الإنسانية الكونية فجدير بنا التعامل مع التحديات الراهنة التي تواجهنا اليوم سواء من الغرب الأوروبي أو استيعاب واقعنا الحضاري الإسلامي، وربما ذلك أعطانا بعض الثقة بالنفس من أجل الإقلاع الحضاري، بعد أن حاول المستشرقون التأثير على مجرى التفكير الفلسفي الإسلامي عن طريق تطوير موضوعات ونظريات عديدة تتصل بالتاريخ الإسلامي التي تخفي في كثير من الأحيان دوافع وأهدافا كامنة ترجع إلى الهيمنة على العالم الإسلامي والشرق بعامة عن طريق الاعتماد القوي على النشاطات البشرية والاستعمارية.